قوله وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا. قال ابن عباس رضي الله عنه لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم. وقال ابن الخطيب معناه إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم فجعلناهم بدلا منهم كقوله تعالى على أن نبدل أمثالكم والغرض بيان الاستغناء التام عنهم كأنه قيل لا حاجة بنا إلى أحد من المخلوقين ألبتة وبتقدير أن ثبتت الحاجة فلا حاجة بنا إلى هؤلاء الأقوام فإنا قادرون على إبدالهم وإيجاد أمثالهم ونظيره قوله تعالى إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد إن يشأ يذهبكم ويأت بآخرين. وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه معناه لغيرنا محاسنهم إلى أقبح الصور وأقبحها وقيل أمثالهم في الكفر.

فصل

قال الزمخشري في قوله تعالى وإذا شئنا وحقه أن يجيء بإن لا بإذا كقوله تعالى وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم إن يشأ يذهبكم يعني أن إذا قد يجيء موقع إن كالعكس. قال ابن الخطيب وكأنه طعن في لفظ القرآن وهو ضعيف لأن كل واحد من إن وإذا حرف شرط إلا أن حرف إن لا يستعمل فيما هو معلوم الوقوع فلا يقال إن طلعت الشمس أكرمتك أما حرف إذا فإنه يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع فلا يقال إن طلعت الشمس أكرمتك أما حرف إذا فإنه يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع تقول أبدا إذا طلعت الشمس أكرمتك أما حرف إذا فإنه يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع تقول أبدا إذا طلعت الشمس فههنا لما كان الله تعالى عالما أنه سيجيء وقت يبدل الله تعالى فيه أولئك الكفرة بأمثالهم من الخلقة وأضدادهم في الطاعة لا جرم حسن استعمال حرف إذا. قوله إن هذه تذكرة أي هذه السورة موعظة. قوله فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا أي طريقا موصلا إلى طاعته. وقيل سبيلا أي وسيلة وقيل وجهة وطريقة إلى الخير والمعنى أن هذه السورة لما فيها من الترتيب العجيب والوعد والوعيد والترغيب والترهيب تذكرة للمتأملين وتبصرة للمستبصرين.

فصل

قال ابن الخطيب متى ضمت هذه الآية إلى الآية التي بعدها خرج منهما صريح مذهب الجبر لأن قوله تعالى فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا يقتضي أن مشيئة العبد متى كانت خالصة فإنها تكون مستلزمة للفعل. وقوله تعالى بعد ذلك وما تشاؤون إلا أن يشاء الله يقتضي كون مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد ومستلزم المستلزم مستلزم فإذن مشيئة الله تعالى مستلزمة لفعل العبد وذلك هو الجبر وكذا الاستدلال على الجبر بقوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر لأن هذه الآية أيضا تقتضي كون المشيئة مستلزمة للفعل ثم التقرير ما تقدم. قال القاضي المذكور هنا اتخاذ السبيل والله تعالى قد أمر به وهو أمر قد شاءه لأنه أمر به فلا بد وأن يكون قد شاءه وهذا لا يقتضي أن يقال العبد لا يشاء إلا ما قد شاء الله على الإطلاق إذ المراد بذلك الأمر المخصوص الذي قد ثبت أن الله تعالى أراده وشاءه وهذا الكلام لا تعلق له بالاستدلال الذي ذكرناه. فحاصل ما ذكره القاضي تخصيص العام بالصورة المتقدمة وذلك ضعيف لأن خصوص ما قبل الآية لا يقتضي تخصيص هذا العام لاحتمال أن يكون الحكم في هذه الآية واردا بحيث يعم تلك الصورة وغيرها. قوله إلا أن يشاء الله فيه وجهان أحدهما أنه حال أي إلا في حال مشيئة الله تعالى قاله أبو البقاء وفيه نظر لأن هذا مقدر بالمصدر إلا أن يريد تفسير المعنى

والثاني

والثاني ظرف. قال الزمخشري فإن قلت ما محل أن يشاء الله قلت النصب على الظرف وأصله إلا وقت مشيئة الله تعالى وكذلك قرأ ابن مسعود إلا ما يشاء الله لأن ما مع الفعل كأن. ورد أبو حيان بأنه لا يقوم مقام الظرف إلا المصدر الصريح لو قلت أجيئك أن يصيح الديك أو ما يصيح لم يجز. قال شهاب الدين وقد تقدم الكلام معه في ذلك مرارا. وقرأ نافع والكوفيون يشاؤون خطابا لسائر الخلق أو على الالتفات من الغيبة في قوله تعالى نحن خلقناهم والباقون بالغيبة جريا على قوله خلقناهم وما بعده. قوله وما تشاؤون أي الطاعة والاستقامة واتخاذ السبيل إلى الله إلا أن يشاء الله فأخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم وأنه لا ينفذ مشيئة أحد ولا تتقدم إلا أن تتقدم مشيئة الله تعالى. قيل إن الآية الأولى منسوخة بالثانية. قال القرطبي الأشبه ليس بنسخ بل هو تبيين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته. قال الفراء وما تشاؤون إلا أن يشاء الله جواب لقوله تعالى فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقال وما تشاؤون ذلك السبيل إلا أن يشاء الله لكم إن الله كان عليما بأعمالكم حكيما في أمره ونهيه لكم. قوله يدخل من يشاء في رحمته أي يدخله الجنة راحما له. قال ابن الخطيب إن فسرنا الرحمة بالإيمان فالآية صريحة في أن الإيمان من الله تعالى وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئة الله تعالى وفضله وإحسانه لا بسبب الاستحقاق لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجهل أو الحاجة وهما محالان على الله تعالى والمفضي إلى المحال محال فتركه محال فوجوده واجب عقلا وما كان كذلك كان معلقا على المشيئة البتة. قوله والظالمين أي ويعذب الظالمين وهو منصوب على الاشتغال بفعل يفسره أعد لهم من حيث المعنى لا من حيث اللفظ تقديره ويعذب الظالمين ونحوه زيدا مررت به أي جاوزت ولابست وكان النصب هنا مختارا للعطف جملة الاشتغال على جملة فعلية قبلها وهو قوله يدخل. قال الزجاج نصب الظالمين لأن قبله منصوبا أي يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين أي المشركين ويكون أعد لهم تفسيرا لهذا المضمر كقول الشاعر:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا ... أملك رأس البعير إن نفرا

والذئب أخشاه إن مررت به ... وحدي وأخشى الرياح والمطرا

أي أخشى الذئب أخشاه. قال الزجاج والاختيار النصب وإن جاز الرفع. وقوله تعالى في حم عسق يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصب في المعنى فلم يجز العطف على المنصوب قبله فارتفع بالابتداء وههنا قوله أعد لهم عذابا أليما يدل على ويعذب فجاز النصب. وقرأ الزبير وأبان بن عثمان وابن أبي عبلة والظالمون رفعا على الابتداء وما بعده الخبر وهو مرجوح لعدم المناسبة. وقرأ ابن مسعود وللظالمين بلام الجر وفيه وجهان أظهرهما أن يكون للظالمين متعلقا بأعد بعده ويكون لهم تأكيدا والثاني وهو ضعيف أن يكون من باب الاشتغال على أن يقدر فعلا مثل الظاهر ويجر الاسم بحرف جر فيقول بزيد مررت به أي مررت بزيد مررت به والمعروف في لغة العرب مذهب الجمهور وهو إضمار فعل ناصب موافق لفعل الظاهر في المعنى فإن ورد نحو بزيد مررت به عد من التوكيد لا من الاشتغال

Copyright King Saud University